احالات:

(1)الحديث عن عام 1922

(2)منظمات العمل بين النساء العاملات والفلاحات نظمت في أيلول/سبتمبر 1919 في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. وزمن ثم أنشئت في كافة المنظمات الحزبية المحلية.

(3)من قصيدة بوشكين «الشاعر»

(4)العامل الذي يشتغل يوميا. واستعملت كلمة المياوم من المداوم يوميا.

(5)كتب هذا البحث في عام 1922.

كروبسكايا

التثقيف الذاتي

اعداد الكتروني: جريدة المناضل-ة

الفهرس

- **تنظيم التثقيف الذاتي**
- **-اختيار مادة الدراسة**
- **-كيف ندرس المواد الضرورية**
- **-اقتصدوا الوقت والطاقة**
- **ارشادات عامة لمن يريد أن يدرس دراسة عامة**
- **حول التثقيف الذاتي**

لكب يتعلم المرء ربط النظرية بالتطبيق في العمل اليومي في كل ميدان من ميادين العمل من أجل الصالح العام، عليه أن يدرس كثيرا دراسة مستقلة، وفي العمل التطبيقي تنشأ مسائل عديدة لا يمكن أن يحلها المرء إلا إذا توفرت لديه المعرفة الطافية، فعلى الانسان أن يعرف كيف يكتسب هذه المعرفة بصورة مستقلة، ولكي يحقق ذلك يجب أن يكون لديه حد أدنى من المعرفة وان تتكون لديه عادة الدراسة دراسة مستقلة.

ولدينا الآن سجل عامر بالإنجازات، فقد تبدل وجه قطرنا تبدلا جذريا واصبح الناس واعين منظمين، بيد أن المزيد من التقدم يتطلب المزيد من المعرفة، زد على ذلك أن الجماهير العاملة الواسعة يجب أن تسلح لا بنتف من المعرفة بل بالمعرفة التي تؤلف كلا متكاملا، المعرفة الضرورية لرفع عملنا التطبيقي إلى مستوى أعلى.

إننا بحاجة إلى المعرفة لغرض تقوية نفوذنا على الشعب العامل في البلدان الأخرى. ونحتاجها لجعل قطرنا أغنى وأغنى ولتعزيز قوته وتنظيمه، ولكي تكون منجزاتنا أكثر اقتناعا للجميع.

إننا بحاجة إلى المعرفة للدفاع عن أرض وطننا ونحتاجها للنضال من أجل الثورة الاشتراكية العالمية.
ونحتاجها الآن أكثر من أي وقت في الماضي...

الجاهزة التي تعلمها دون أن يبذل فيها مقدارا عظيما من العمل الجدي المتواصل ودون أن يفهم الحقائق التي يجب أنت يفحصها فحصا انتقاديا فانه يكون شيوعيا يرثى له.

فهذه السطحية خطرة مميتة. فان كنت أعلم أني لا أعرف إلا القليل فسأسعى حينئذ إلى المزيد من التعلم، أما إذا قال الانسان انه شيوعي وانه ليس بحاجة إلى أن يتعلم أي شيء تعلما شاملا فلن يكون له أي شبه بالشيوعي في يوم من الأيام.

واضح وضوح الشمس، انه إذا وجب أن يختار الشخص المواد الضرورية وان ينتقي أهم أجزائها فإن عليه أن يفكر فيها مليا وان يتوصل إلى الاستنتاجات الضرورية، لا ان يهضمها ميكانيكيا وحسب. وبعبارة اخرى يجب ان يتعلم المرء العمل مستقلا ولذلك فإن عليه أن يكون لديه فكرة عن كيفية القيام بهذا العمل المستقل».

والمسألة الثانية التي ناقشها لينين في هذا الخطاب، كانت مسألة ربط النظرية بالتطبيق.

قال: من أعظم المساوئ والمصائب التي تركها لنا المجتمع الرأسمالي القديم هو فصل الكتب فصلا تاما عن الحياة العملية. فقد كانت لدينا كتب تناولت وصف كل شيء أحسن وصف ممكن، ومع ذلك كانت هذه الكتب في أغلب الحالات تحوي أكبر الافتراءات المرائية الكريهة التي تصف المجتمع الرأسمالي وصفا كاذبا.

لذلك فان من الخطأ الفاحش أن يستوعب المرء كل ما كتب عن الشيوعية في الكتب بشكل مجرد. ففي أحاديثنا ومقالاتنا لا نعيد ونكرر ما قيل في السابق فقط عن الشيبوعية، لأن خطاباتنا ومقالاتنا ترتبط بعملنا اليومي في كل فروعه. فبدون العمل، بدون النضال، تصبح معرفة الشيوعية معرفة مجردة مستقاة من الكراريس والكتب الشيوعية عديمة الفائدة إطلاقا، لأنها بذلك تواصل الفصل القديم بين النظرية والتطبيق، هذا الفصل القديم الذي كان أبشع معالم المجتمع البرجوازي القديم.

- **تنظيم التثقيف الذاتي**

قدمت ثورة تشرين الأول/أكتوبر الاشتراكية للكادحين –العمال والفلاحين- فرصا واسعة جدا كيما يعيدوا بناء حياتهم. فقد شعر العامل أنه سيد مشروعه، واستلم الفلاح الأرض، فأصبح حلمه اللذيذ بذلك واقعا ملموسا، وقد أدى كل ذلك إلى بعث النشاط فيهم وإثارة حماسهم.

ولكنهم سرعان ما أدركوا أنهم عقيمون بسبب افتقارهم إلى أبسط مبادئ المعرفة. وقد أنهت الحرب حالة الانعزال التي كان يعاني منها الريف واطلعت الفلاح على أسلوب حياة الناس. فرأى الفلاح منجزات العلم، وعلم أن العلم جعل بمستطاع الانسان أن يجدد خصوبة التربة وأن يستدر منها طاقاتها وثرواتها. وكان العامل قد عرف كل ذلك من قبل.

والثورة إذ جعلت الجماهير الكادحة سادة مصيرهم أيقظت فيهم رغبة تطبيق العلوم لأغراضهم الخاصة.

وقد كشفت هذه الرغبة للعامل والفلاح أكثر من ذي قبل افتقارهم إلى المعرفة وحاجتهم إلى اكتسابها.

إن الحكومة السوفياتية تعطف كل العطف على رغبتهم في الدراسة وتؤيدها. وقد كان التعليم خارج المدارس في ظل القيصرية منظما تنظيما بائسا رديئا. بيد أن الحكومة السوفياتية تعير العمل بين الراشدين اهتماما خاصا ولا تبخل في بذل المبالغ الطائلة في هذا السبيل.

إن النضال ضد الأمية يسير على قدم وساق. فقد أنشأنا حوالي 80000 قاعة مطالعة في الريف وحوالي 30000 مكتبة وشبكة واسعة من المدارس الحزبية السوفياتية والنوادي... الخ. وقد استنفدنا من الصحافة إلى أقصى حد، كما استخدمنا التسهيلات الثقافية لغرض التحريك، وقد قمنا بحملات تحريكية ونظمنا دورات دراسية متنوعة.

ومنذ إقامة السلطة السوفياتية قبل خمس سنوات بذلت معاهد التعليم السياسي جهودا جبارة في سبيل بذر بذور المعرفة بين السكان.

والجيش الأحمر بدوره مركز كبير آخر من مراكز الثقافة. فالسنتان اللتان يقضيهما كافة الشباب في الخدمة العسكرية في الجيش الأحمر لا تضيع هباء ففي الجيش الأحمر مدارس للجنود من مختلف المستويات التعليمية إضافة إلى المكتبات والنوادي (في الجيش الأحمر الآن (1) ما يزيد على 1200 نادي و6200 حلقة من الحلقات السياسية والتعليمية والزراعية وغيرها، تضم بمجموعها ما يزيد على 130000 عضو).

ولم يكن عمل النقابات في مضمار التعليم أقل أهمية من ذلك وكذلك المنظمات النسائية (2) وعصبة الشباب.

وقد نظمت تشريعات قبول الطلاب والاعانات بحيث تجعل بمستطاع أوسع ما يمكن من جماهير العمال والفلاحين الالتحاق بمعاهد الدراسة العالية. وقد أجريت التسهيلات اللازمة لقبول كافة أبناء العمال والفلاحين في المدارس الثانوية. وقد أنشئت مدارس خاصة -مدارس إعداد العمال- لإعداد العمال والفلاحين للجماعات ومعاهد التعليم العالي الأخرى.

بيد أن هذا كله لا يشبع نهم الشعب العامل للتعليم. فسيلعب التثقيف الذاتي في روسية دورا ذا أهمية استثنائية ولأمد طويل.

غير أن التثقيف الذاتي لا يمكن أن يعطي ثمارا طيبة إلا إذا علم المرء ماذا يقرأ وكيف يقرأ وكيف ينظم دراسته على أحسن وجه.

وفي مطلع هذا القرن ظهر تيار انتهازي في الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية تدعى «الاقتصادية» وقد زعم الاقتصاديون بأن العمال يجب أن لا يشغلوا أنفسهم بالنظريات، أو أن يشتغلوا في النضال السياسي بل انهم يجب أن يشنوا نضالا اقتصاديا وحسب، نضالا يستهدف ظروفا مادية أفضل.

وقد كافح اللينينيون هذا التيار بكل حزم.

وبعد ذلك –في سنوات الرجعية والتذبذب الايديولوجي التي تلت ثورة 1905 –ظهر تيار بين البلاشفة، تحدى صحة المادية الديالكتيكية- الأساس العلمي للماركسية- وحاول البرهنة على أن الاكتشافات الأخيرة في العلوم الطبيعية تتناقض مع تفسير الظواهر تفسيرا ماديا، لذلك صار من «الضروري» خلق نظرية جديدة، وقد دخل لينين معهم في معركة علمية حامية الوطيس وفضح كيف أن استنتاجاتهم خاطئة وتفتقر إلى الأساس العلمي، كان ذلك في 1908 و1919 وكان الكتاب الذي كال لهم فيه لينين ضربته **المادية والنقد التجريبي** (المجلد الرابع عشر)، وقد أعار فيه لينين اهتماما خاصا للدعاية الماركسية وطلب إلى كافة أعضاء الحزب وعصبة الشباب الشيوعي أن يدرسوا الماركسية.

وقد شرح لينين كيف يجب أن يدرس الشباب الماركسية أحسن شرح في خطابه عن مهام عصبة الشباب. فقد شرح كيف يجب أنم يدرسوا، وماذا يجب أن يدرسوا، إن هم أرادوا أن يصبحوا شيوعيين واعين. وأوضح كيف يجب استيعاب مادة الدراسة وكيف يجب أن يعملوا بحيث «لا تصبح الشيوعية شيئا مدروسا، بل شيئا تكون أنت نفسك قد فكرت به ومحصته».

ثم قال: «**اننا بحاجة إلى تطوير وايضاح ذهن كل طالب بمعرفة الحقائق الأساسية. لأن الشيوعية تتحول إلى كلام فارغ أو مجرد شعار مكتوب، ويصبح الشيوعي مجرد ثرثار ان هو لم يستوعب في ذهنه كل ما اكتسب من معرفة. ولا يجب أن تستوعب هذه المعرفة وحسب، بل يجب أن تستوعبها استيعابا انتقاديا، لكي لا تحشر ذهنك بتوافه لا فائدة فيها بل تغنيه بكافة الحقائق التي لا يمكن أن يستغني عنها أي انسان متعلم. وان فكر شخص في أن يتباهى بشيوعيته بسبب الاستنتاجات**

يكونوا معلميها وقادتها (تصفيق حاد) وان كل من يصادق على مثل هذه الآراء، الآراء التي ليست في الواقع سوى ضربة إلى المعرفة العلمية الواضحة العميقة الجذور والتي تسعى الاشتراكية الديمقراطية الى تلقينها للجماهير وجعلها أساسا لنشاطها العملي، أقول أن كل من يصادق على هذه الآراء يجب أن ينزوي في أحد أركان بيته هادئا متواضعا ليتقن النظرية قبل أن يجرؤ على الدعوة لتحريف النظرة الاشتراكية إلى العالم» (تصفيق طويل).

وقد آل مصير الانتهازيين الالمان الآن إلى الانحياز إلى جانب الفاشية التي تكره الاشتراكية العلمية أكثر من أي شيء آخر، فالفاشست يحرقون الكتب الماركسية الكلاسيكية، ولكنهم أعجز من أن يقفوا بوجه المسيرة التاريخية التي أوضحها مؤسسا الماركسية، المسيرة التي لا بد وان تنتهي بانتصار الاشتراكية في جميع أنحاء العالم.

ويظهر تاريخ حزبنا، ان الحزب قد شن نضالا حازما من أجل النظرية الماركسية وضد تحريفها وتشويهها.

خذوا مثلا أول مؤلف كبير من مؤلفات لينين **«من هم اصدقاء الشعب»** وكيف يكافحون الاشتراكيين الديمقراطيين (المجلد الأول) الذي كتبه عام 1894 لمحاربة سوء فهم النارودنيك بقيمة الماركسية العلمية.

وفي مقال «فردريك انجلز» الذي كتبه لينين بمناسبة وفاته في عام 1890 لصحيفة سرية أكد بأسلوب شعبي أهمية الماركسية العلمية الهائلة.

وفي مقالا «فردريك انجلز» الذي كتبه لينين بمناسبة الطبقة العاملة الروسية أيضا، ففي نهاية العقد الأخير في القرن الماضي حاولت الجريدة السرية رابوجايا ميل أن تقصر حركة العمال على النضال من اجل المطالب الصغرى، وقد تمادت الجريدة إلى درجة انها أعلنت باسم العمال «بأننا لا نحتاج إلى ماركس وانجلز وأشباههم، فنحن العمال نعلم ما نريد عمله».

إنهم لن يعرفوا كيف يسيرون في دراساتهم وماذا يقرأون وكيف يقرأون،/ بل انهم يفتقرون إلى العادات الأولية التي لا غنى عنها عند دراسة الكتب. وغالبا ما لا يرضى رجل، وهو ما زال حديث عهد بالقراءة والكتابة بقراءة أقل من كتاب ماركس (رأس المال) ليحصل على نتيجة واحدة فقط، وهي أنه لا يفهمه.

أما الناس الأقل عزما وذوو القلوب الخائرة فإنهم يعتبرون الدراسة أمرا صعبا وعسيرا ولذلك يسقطونها من حسابهم. والدراسة ليست صعبة إلا بسبب أن المرء يريد قراءة ماركس دجون أن تكون له المهارة والمعرفة اللازمتان لاستيعاب الموضوع، أي لأن المرء لا يخرج لصيد الدببة أعزلا كما يقال.

والناس الأكثر عزما والمثابرون ينجزون ما يريدون ولكنهم أثناء ذلك يبذلون جهودهم بذلا لا ثمرة فيه وكثيرا ما يرهقون أنفسهم بذلك.

كثيرا ما يجري الحديث في بلادنا عن الدعاية لتنظيم العمل والانتاج. أما ما تتضمنه هذه الأحاديث فهو بالدرجة الرئيسية تنظيم الانتاج.

لقد حلل فردريك تيلر وغيره من المهندسين والأخصائيين مسألة تنظيم العمل البدني تحليلا مفصلا ضافيا. بل توجد كتب عديدة جدا في موضوع تنظيم المعمل وتوزيع الأدوات وتقسيم العمل وإصدار التعليمات وتقدير العمل الناتج. ولا تناقش هذه المسائل إلا لغرض تجنب تبذير الوقت والطاقة.

إن خيرة العمال من وجهة نظر كفاءة تنظيم العمل هم العمال الذين ينجزون عملهم انجازا مرضيا وسريعا ويبذل أقل ما يمكن من الزمن والطاقة.

ولكننا إذ نؤكد في حالة العمل البدني دائما على الأهمية الكبيرة لتنظيم العمل تنظيما مناسبا صحيحا، فإننا نتجاهل هذه الحقيقة الجلية الواضحة في مضمار العمل العقلي رغم أنها ذات أهمية بالغة للطلاب ولأولئك الذين يجدون أنفسهم مضطرين على رفع مستوى معرفتهم عن طريق التثقيف الذاتي.

-اختيار مادة الدراسة

إن مجال المعرفة الانسانية مجال واسع رحب. ففي مضمار العصور اكتسب الناس مقدرا هائلا من المعرفة عن الطبيعة والمجتمع مما لا يمكن تصديقه. وليس من يستطيع استيعاب جميع هذه المعرفة اطلاقا. إذ ينبغي أن يعيش عشر مرات كيما يتقنها بل حتى ذلك لا يكفيه. وليس بالإنسان حاجة، على كل حال، لأن يتعلم كل شيء. فيكيفه أن يختار من بين هذه الكتلة الهائلة من المعرفة الانسانية أهم ما فيها، أي المعرفة التي تجعل الانسان شديد البأس وتمنحه السلطة على الطبيعة والتطورات التي تعلمه كيف يستفيد من قوى الطبيعة وثرواتها وكيف يغير حياة المجتمع الانساني. بل من الضروري أن نختار المواضيع ذات الأهمية العظمى بالنسبة للإنسان.

إننا نعيش عصر ثورة اجتماعية، نعيش وقتا يشرف فيه النظام الرأسمالي القديم على الانحلال والموت ليفسح المجال للنظام الشيوعي الجديد. والنظام الرأسمالي قائم على أساس الاستغلال والاضطهاد. إنه نظام أدى إلى الحرب الامبريالية العالمية التي هزت العالم. وهذه الحرب وأهوالها مزقت القناع المثالي عن جسم الرأسمالية، فكشفت للجماهير الواسعة عن ظلم النظام الرأسمالي وعن آفاقه المظلمة. إن أذهان الشعب العامل تعمل دونما كلل بحثا عن أشكال جديدة للحياة الاجتماعية. وها أن روسيا قد بدأت بالفعل في بناء حياة جديدة. بيد أن هذه العملية تحف بها ظروف صعبة للغاية. وهذا بطبيعة الحال يثير اهتماما هائلا بالقضايا المعاصرة إذ يريد الناس فهمها وادراك معانيها.

إن الناس الذين يتوقون إلى فهم الأحداث الجارية –وهذا لعمري أمر هام جدا –يجب أن يقرأوا الصحف، وان الصحف كالبرافدا مثلا، تتيح لهم فرصة فهم أشياء كثيرة. والصحيفة على أية حال لا يمكنها إلا أن تجبر الذهن على العمل في اتجاه معين فقط، أي أن تجذب الانتباه إلى حقيقة معينة وتبين كيفية التعامل مع هذه الحقيقة. وباختصار، انها تستطيع أن تفعل ما يفعله محاضر أو خطيب موهوب واسع الاطلاع: أي توجيه الأذهان إلى الطريق الصواب وتبيان الطريقة الصحيحة لمعالجة الأمور وتلخيص القضايا الهامة. غير أن على المرء أن يقرأ بالإضافة إلى الصحيفة، الأدب المتعلق بقضية معينة. كيما يستوعب أهميتها ومغزاها. فليس للإنسان أن يأمل في فهم

وقال لينين في الخطاب الذي ألقاه عام 1920 عن المهام التي تجابه عصبة الشباب: **وإذا سألتم لماذا استطاعت تعاليم ماركس ان تخلب قلوب الملايين وعشرات الملايين من أفراد الطبقة الأكثر ثورية، فلن تنالوا سوى جوابا واحدا: لأن ماركس وضع قدميه على أساس متين من المعرفة الانسانية المكتسبة في ظل الرأسمالية. فقد أدرك ماركس، وهو يدرس قوانين تطور المجتمع الانساني، حتمية تطور الرأسمالية الذي يسير نحو الشيوعية. والشيء الرئيسي هو انه لم يبرهن على ذلك إلا على أساس أدق دراسة، وأوسعها وأعمقها، لهذا المجتمع الرأسمالي، وإلا باستيعابه كل ما انتجته العلوم إلى يومه»**.

لقد حاول الانتهازيون بكل ما أوتوا من قوة البرهنة على أن تعاليم ماركس وانجلز لا تستند إلى أساس علمي.

ففي أحد المؤتمرات الحزبية في بريسلاو في ألمانيا عام 1890، أي قبل أربعين عاما، ادعى ذلك الانتهازي الزنيم دافيد، أن حزب الطبقة العاملة (وكان يدعي حينئذ الحزب الاشتراكي الديمقراطي) كان حزبا قائما على الارادة وليس على العلم. وقد دحضت رأيه كلارا زيتكن إذ قالت: **«في رأيي ان الحزب الاشتراكي الديمقراطي هو حزب إرادة موجهة حازمة لأنه حزب علم، موجه حازم»**.

وفي مؤتمر الحزب عام 1908 عادت إلى هذه المسألة. فقد كتب الانتهازي موريريكر في مقال في الصحافة البرجوازية «ان تحقيق أسلوب الانتاج الاشتراكي لن يكون بنتيجة خبرة تاريخية، بل انه فكرة تنظيمية بحتة، انه قضية ايمان وأمل». وقد قالت كلارا زيتكن تعليقا على هذه العبارة:

«ليست هذه العبارة سوى نقض لوجهة النظر القائلة بأن الدولة الاشتراكية في المستقبل ضرورة تاريخية حتمية ونتاج تطور المجتمع تطورا طبيعيا. أو بعبارة أبسط انها أكثر من النكوص بالاشتراكية إلى نظريات الاشتراكين الطوبائيين، انها قلب الاشتراكية إلى نوع من التضليل الكنائسي. فمن الضروري جدا. في اعتقادي ان تعلن بكل ثبات وعزم ان الناس الجاهلين جهلا مطبقا والمرتبكين في فهم الأسس النظرية للماركسية لا يصلحون بتاتا لتثقيف البروليتاريا بالاشتراكية. ولا لأن

اتقان المعرفة التي يقدمها لهم معلموهم وفي اتقان المواد الواردة في الكتب الدراسية. لقد أصبح التعليم المهمة الأولى.

كتب ولهلم ليبكنخت، وهو من الزملاء المقربين لماركس وانجلز، في كراسه «**المعرفة قوة**» ان أرباب العبيد والاقطاعيين والرأسماليين كانوا يحاولون تسخير المعرفة لأغراضهم الخاصة وتحويلها إلى امتياز. وكانوا يبذلون قصارى جهدهم لمنع الجماهير من اكتسابها.

وقد كتب لينين عن نفس الموضوع في 1895 إلى الجريدة السرية رابوتشيي ديلو. وقد صودرت المسودة أثناء غارة من غارات الشرطة واعتقل لينين. وقد وجد المقال في سجلات الشرطة بعد قيام الحكم السوفياتي، ونشر لأول مرة عام 1924 بعد وفاة لينين. وكان عنوان المقال «بماذا يفكر وزراؤنا؟» وانتهى المقال بالكلمات التالية:

«أيها العمال انكم ترون بأم أعينكم كيف يخاف وزراؤنا، خوف الموت، من اكتسابهم المعرفة! اظهروا لكل انسان أن ليس من قوة تستطيع حرمان العمال من وعيهم الطبقي. ان العمال بدون المعرفة مغلوب على أمرهم، اما مع المعرفة فهم قوة.»

بيد أن وضع اليد على هذه المسودة لم يثن الرفاق بأية حال عن شرح وتوسيع هذه الفكرة أثناء نشاطهم التحريكي. ففي 1896، أي بعد ستة شهور من اعتقال لينين. كتب في يوم العمال في الأول من أيار/مايو نشرة طور فيها هذه المقولة وتمكن من تهريبها إلى خارج السجن. وقد جاء في النشرة المطبوعة بالرونيو «**اننا نحن العمال يخيم علينا الظلام. فقد حرمونا المعرفة لأنهم لا يريدوننا ان نتعلم كيف ننضال من أجل حياة أفضل**». ومنذ ذلك الحين كانت ضرورة اكتساب المعرفة من أجل النضال المبدأ الأساسي في جميع نشاط عاملي الحزب في الدعاية والتحريك. وكيف يمكن أن يكون غير ذلك؟ فتعاليم ماركس وانجلز التي سلحت الطبقة العاملة في نضالها لم تكن نبوءة منزلة ولا اختراعا، بل كانت عملا علميا يرينا الجهة التي يسير اليها تطور المجتمع وكيف يمكن احراز النصر.

شتى ظواهر النظام الرأسمالي إن هو لم يفهم الترابط الغامض بين أجزائه. وهكذا حين يريد امرؤ أن يفهم التطورات الجارية، عليه أن يدرس النظام الرأسمالي وتركيبه والعلاقة القائمة بين الاقتصاد الرأسمالي والايديولوجيا الرأسمالية. زد على ذلك يجب أن يكون فكرة واضحة عن القوى المعادية للرأسمالية اليت تنشأ وتطور في المجتمع الرأسمالي. فهنا يكمن مفتاح فهم الأحداث الجارية.

وثمة مسألة أخرى لا تقل عن سابقتها أهمية: في أي اتجاه يتطور المجتمع البشري؟ هذه مسألة جوهرية وحيوية. فالشيوعيون يدعون أن المجتمع الرأسمالي يتقدم بفضل قوانين التطور نحو الشيوعية. ولكي يفهم المرء إلى أين يسير المجتمع البشري عليه أن يدرس قوانين تطور المجتمع. وتاريخ المدنيات القديمة يكشف عن هذه القوانين كشفا واضحا بصورة خاصة وبشكلها البسيط جدا، ولذلك فمن الضروري دراستها. بيد ان على المرء أن لا يقتصر على دراسة المدنيات القديمة وحدها: بل يجب أن يرى كيف تطور المجتمع وكيف تحكمت هذه القوانين في المجتمعات التاريخية التالية، وكيف تعمل في المجتمع الرأسمالي. وحينئذ سيتضح الاتجاه الذي يتطور نحوه المجتمع.

وإلى جانب المسائل ذات الطابع الاجتماعي يجد المرء مسائل عن الظواهر الطبيعة. فالإنسان عضو في المجتمع الانساني وكذلك عضو في العالم الحيواني، ولذلك لا يؤثر عليه الناس ولا تؤثر عليه الحياة الاجتماعية وحسب، بل ان الطبيعة وظواهرها أيضا تمارس عليه تأثيرها. فعليه وجب أن ندرس الطبيعة وظواهرها في شتى أشكالها المتعددة، كما وجب أن ندرس قوانين الطبيعة الحية منها وغير الحية. وقد تناول العلم الطبيعي الظواهر الطبيعية تناولا معينا محدودا كالمراقبة والاستنتاج ثم اختبار الاستنتاج. فباستخدام هذا الأسلوب وبدراسة ظواهر الطبيعية وقواها دراسة تدريجية بطيئة اكتسب العلم –وهو خبرة الانسان المتجمعة والمنسقة- مقدارا واسعا من المعرفة الهامة في هذا المضمار، مما أتاح استخدام ثروات الطبيعة وقواها لمصلحة البشرية أفضل استخدام. من الضروري أن يتعرف المرء على المعرفة التي اكتسبها الانسان في مضمار العلوم الطبيعية لأن ذلك يقدم له صورة واضحة عن سيطرة الانسان النامية على الطبيعة.

وثمة جانب آخر من العلوم الطبيعية يثير اهتماما خاصا. فإننا ندرس الحياة الاجتماعية في تطورها وهذا يجب أن يكون أسلوبنا في تناولنا العلوم الطبيعية أيضا: أصل الأرض أصل الحياة على الأرض، أصل شتى أنواع النباتات والحيوانات، أصل الانسان –هذه كلها أمور يجب على الانسان أن يعرفها إن اراد أن يفهم دوره في الطبيعة حق الفهم وأن يشعر بأنه ثمرة من ثمار الأرض. ومن المهم أن لا يقتصر المرء طبعا على التعرف على آخر منجزات العلم بل أن يتعرف أيضا على طريقة التوصل إلى هذه المنجزات وعلى الأدوات والحقائق التي أتاحت لنا هذه المنجزات.

من المهم أن لا يأخذ المرء الأمور على عوانها، بل أن يشعر حقا بأنها كذلك. ففي قديم الزمان وضع الناس العديد من الأساطير حول أصل الأرض، وحول أصل الأنواع وأصل الانسان. ومازالت هذه الأساطير سائدة حتى يومنا هذا رغم أن المراقبة والأبحاث والحقائق قد دحضتها وفندتها. هذا ايضا يجب دراسته.

يهوى البعض أن يزعموا بأن الكتاب أداة للعمل وليس وسيلة لتطوير نظرة المرء للعالم. يقول هؤلاء: «ان الكتاب يعود للعمل الانتاجي وليس لاكتساب المعرفة وليس لتطوير نظرة منسقة منسجمة للعالم. كما قد قيل من قبل. هكذا يجب أن يكون شعارنا. علينا أن نجعل الكتاب في خدمة المطرقة والمنجل.» هكذا يقولون.

انها كلمات جارفة ولكنها عديمة المعنى. فما معنى «ان الكتاب يعود للعمل الانتاجي وليس لاكتساب المعرفة»؟ وما مغزى هذا القول يا ترى؟ ان الكتاب يؤدي بالضبط إلى اكتساب المعرفة التي تجعل العمل أكثر انتاجية. ثم يلي ذلك الزعم بأن «الكتاب أداة للعمل الانتاجي...» وليس «لتطوير نظرة منسقة منسجمة للعالم»، وهذا خطأ أيضا. فما هي النظرة إلى العالم. انها هذا الحل أو ذاك للمسائل الأساسية التي تحدد موقفنا من بيئتنا ومن الطبيعة. أيمكن أن نترك هذه المسائل دون حل؟ كلا لا يمكننا ذلك لأننا لو تركناها لما فهمنا أي شيء عن الحياة وسنكون كالجراء العمياء. وما هي النظرة «المنسقة المنسجمة» للعالم؟ انها نظرة مدروسة جيدا، نظرة تجيب على كافة المسائل الأساسية أجوبة لا تتناقض فيما بينها بل ينسجم أحدهما مع الآخر، أجوبة تكون بمجموعها كلا موحدا. وحين يدرس المرء كافة المسائل الأساسية دون أن يتناقض نفسه بنفسه. فهل هذا أمر حسن أم رديء؟ مثل هذا الانسان يعرف ما يجب

لقد التعطش إلى التعلم هائلا، بينما كانت الفرص محدودة.

ومذ ذاك تغير وجه قطرنا تغيرا تاما: فاليوم قد طبق قانون التعليم الالزامي واتسع تداول الصحف وطبع الكتب الدراسية الضخمة ونظمت شتى أنواع الدروات واتسعت شبكة الراديو. وقد قضي على الأمية في قطرنا تقريبا وازداد وعي الناس. بيد ان ما قلته عن التعاون المتبادل في 1919 يصح في الوقت الحاضر أيضا. فقد قضي على الأمية في القطر تقريبا، ولكن المستلزمات الثقافية قد تمت بشكل ملحوظ أيضا وكذلك يجب النضال من أجل القضاء النهائي على الأمية، إذ مازالت بعض المحلات كمنظمة سيميونوفسكي في قطاع كوركي حيث ازدهرت الحرف اليدوية لقرون عديدة، وحيث استغل الأطفال إلى اقصى حدود الاستغلال، ما زال هنالك العديد من الأميين. وكذلك لم يقض على الأمية 100 بالمئة في المناطق القومية حيث الاسلوب السائد في الحياة لأمد قريب كان أسلوب القبائل الرحل، وحيث تضيع القرى المتباعدة في السهوب الشاسعة وحيث مازال نشر الكتب بلغاتهم القومية منظما تنظيما سيئا. إن حملة مكافحة الأمية بمبادأة عصبة الشباب الشيوعي اسعدت على انتشار التعاون المتبادل في التعليم الابتدائي وساهمت مساهمة جبارة في محو الأمية من بلادنا. وقد جرت الأمور بسرعة لم تدع مجالا للاهتمام اهتماما كبيرا بنوعية التعليم، بل ان مفهوم القراءة والكتابة ذاته قد ضيق كثيرا. يجب أن لا تغفل الانتباه إلى أشكال التعليم الابتدائي ويجب أن نتذكر أن هنالك الكثير من أنصاف الأميين في بلادنا حتى بين الشباب. إن التعاون المتبادل لا غنى عنه في كل أشكال التعليم من الناحية الجماعية. وان ما قلته في 1919 ما يزال صحيحا اليوم أيضا.

ولكني أود في هذا المقال **أن ألفت الانتباه إلى مسألة اخرى –مسألة التثقيف الذاتي، أي كيف يكتسب الانسان المعرفة بصورة مستقلة**. في السنوات الأولى للحكم السوفياتي أعارت مدارسنا من الاهتمام إلى تطور الاطفال العام أكثر مما أعارته إلى الدراسة. وكان التعليم بالإجمال منظما تنظيما سيئا جدا. ولم تتوفر آنذاك كوادر تعليمية جيدة وكان علينا أن نعيد تنظيم النظام التعليمي برمته، وكان ذلك كل ما يشغل بالنا آنذاك. أما في السنوات القلائل الماضية فقد ركزنا اهتمامنا في الدراسة وفي نقل المعرفة إلى الآخرين وفي القاء المحاضرات وفي مساعدة الطلاب على

ب-عليه أن يعتني بأن **يزيل كل غموض من كل نقطة غير مفهومة**. وفي هذا السبيل عليه أن يلجأ إلى القواميس الانسكلوبيدية وأن يسأل الناس الذين يعرفون الموضوع والمستشارين.

ج-**عليه أن يعيد قراءة ما درسه**، وهذا يصح بصورة خاصة على الموضوع الذي درسه في المرة السابقة.

د-يجب أن **لا ينقطع عن الدراسة فترات طويلة** خاصة في البداية حين لا يكون الموضوع الذي درسه قد انطبع في ذاكرته. يجب أن يدرس بانتظام.

ه-**إن الاقتباسات تساعد على تذكر الموضوع**. فمن الضروري أن يسجل في دفتره أهم النقاط التي قرأها، وتفسيرات الكلمات أو العبارات الغامضة وأسماء المدن والأشخاص والأرقام. ويجب أن يقرأ ملاحظاته مرارا وتكرارا. يجب أن يكتب كتابة معقولة لكي لا يضيع الوقت في شطب ما قد كتبه.

6-من المفيد جدا استخدام كتب دراسة المراسلة إن توفرت، فهي تقدم النصح وتساعد على اتقان مواضيع الدراسة.

- **حول التثقيف الذاتي**

إن أول مقال كتبته حول التثقيف الذاتي في 1919 كتبته للشباب الشيوعي. وقد أشار المقال وهو على حق أن «خير ثقافة ذاتية يمكن أن ينالها المرء لا تكون بالجلوس في إحدى الدوائر بل بالمساهمة في النشاط الجماعي». وهذا صحيح، ولكن المقال قد كتب في 1919، أي في ذروة سعير الحرب الأهلية جين كنا نكافح دفاعا عن السلطة السوفياتية وحين كانت البلاد برمتها تقريبا أمية ومفككة اقتصاديا، وحين لم يكن لدينا الورق الكافي لطبع الكتب، وحين كنا مضطرين إلى تحديد تداول الصحف، وحين لم يكن في البلاد إلا قليل من المدراس. ولذلك كان موضوع مقالي الرئيسي آنذاك مسألة التعاون المتبادل في التثقيف.

أن يفعله وكيف يفعله، انه ما ندعوه رجلا «واعيا طبقيا». ولدينا كل الأسباب التي تجعلنا نعتقد بأن عمل الرجل الواعي طبقيا سيكون أكثر انتاجية من عمل رجل لا يعرف وجهه من قفاه. وعلى ذلك يجب أن لا يتصور المرء بأن تكوينه نظرة صائبة للعالم أمر فات أوانه وقدم عهده وأمر غير شرعي. والشيوعي يسعى لأن يصبح ماركسا جيدا ومؤيدا صلبا للنظرة المادية للعالم بكل ثمن. فهو مؤمن بأن هذا سيساعده على العمل والسلوك بشكل أفضل ومعنى ذلك انه يكون ذا كفاءة أعظم.

-كيف ندرس المواد الضرورية

من المهم جدا بالنسبة لمن يريد أن ينكب على التثقيف الذاتي أن يعرف بماذا يبدأ وكيف يواصل دراسته. وطبعا يجب أن يبدأ بكتب يستطيع فهمها، سواء من حيث شكلها أو محتواها. فالرجل الذي لا يلم بمبادئ الرياضيات لن يفهم الرياضيات العالية، وكذلك لا يفهم هيجل من لم يكن له بعض الالمام بالفلسفة. بيد أن هذا ليس كل شيء. فلو تناول أحدهم كتابا يبحث موضوعا لم يفكر فيه من قبل بتاتا، موضوعا لا يحرك فيه عاطفة، موضوعا لا يعرف كيف يربطه بما لديه من معرفة وبالحياة ذاتها، فان قراءة مثل هذا الكتاب قلما تفيده أية فائدة. بيد أن الأمر يختلف ان كان الكتاب يبحث موضوعا مألوفا وان كانت محتوياته تعطيه الجواب عما يدور في خلده من أسئلة.

ولكي أوضح ذلك أورد لكم ما حدث لي منذ زمن طويل –وفي الحقيقة قبل ما يقرب من ثلاثين عاما. فرغم أني كنت قد تخرجت من المدرسة الثانوية، إلا أني لم أكن بعد قد سمعت بتاتا بأن هنالك علما اسمه الاقتصاد السياسي (ولم يكن هذا الأمر عجيبا في تلك الأيام).

وذات يوم قدمت لي إحدى صديقاتي كتاب ايفانيوكوف في الاقتصاد السياسي وحدثتني على قراءته. وكان كتابا من الكتب الشعبية في شكله وفي محتواه. وقد بدأت بقراءته. وأخذت أقضمه لمدة طويلة وانهيته أخيرا. ولكني لم أنل منه أية فائدة بتاتا. وبعد اشهر قلائل، بعد أن بدأت حضور اجتماعات الحلقات أدركت لماذا تجب معرفة الاقتصاد السياسي. فبدأت أقرأ ماركس وقرأت المجلد الأول من رأس المال بلهفة

عظيمة وبسرعة أيضا، لقد علمني الكثير. وقد بدا لي كتاب شعبي صغير أصعب من كتاب علمي ضخم.

ان المحاضر أو المعلم الموهوب المنكب على موضوعه يعرف دائما كيف يثير اهتمام الآخرين فيه وكيف يوجه أفكاره الوجهة الضرورية وكيف يثير اهتمامهم في المسألة المعينة. قد لا تكون المحاضرة لذيذة أو عميقة احيانا، ولكنها إذا ما جعلت السامع يفكر وإذا ما أثارت فضوله حينئذ تكون محاضرة قيمة. في الأيام الغابرة كان معلمو الفقه يستخدمون الأدب لإثارة أفكار تلاميذهم. والخطيب يستطيع ذلك في اجتماع. فالأحاديث مع الرفاق ومناقشة القضايا مناقشة مشتركة يمكن أن تؤثر كثيرا في اثارة فضولهم واهتمامهم. لذلك فان النشاط الجماعي في الصفوف أو الحلقات قيم للغاية –وانه حافز ودافع ممتاز.

ولنبحث موضوع **الاهتمام** بشيء من الاسهاب.

للناس المختلفين ميول مختلفة. فالبعض منهم يهتم بالنشاط الاجتماعي بينما يهتم الآخرون بالتكنولوجيا وغيرهم بالفنون الخ. وهناك بون شاسع بين أن تجبر نفسك على دراسة الشيء وبين أن تدرس شيئا تحبه، شيئا جذابا. والنتائج تختلف اختلافا شاسعا أيضا. تعرف مثلا كم يصعب على الأطفال أن يتعلموا شيئا حين تملأ رؤوسهم أمور أخرى. «صدق أو لا تصدق، صدق أو لا تصدق، لقد نال بوشكين صفرا جديدا».

لماذا كان بوشكين متأخرا في دراسته في الندوة العلمية؟ هل يرجع ذلك إلى أنه ولد مدللا أو كسولا؟ كلا طبعا. بلا كان متأخرا في الدراسة لأنهم لم يدرسوه ما كان يريد أن يتعلمه ولأن اهتمامه كان منصبا على دراسة الشعر. واليكم كيف يصف بوشكين مزاج الشاعر حين يعيش خارج نطاق ميوله وثم حين يثار اهتمامه.

ليس ثمة الكثير مما يثير اهتمامه حقا
في ضوضاء عالمنا.
فروحه الشاعرة غارقة في نوم عميق
وشعره لم يزل غير مسموع.

3-من الضروري أن **يقرر الشخص ما يريد دراسته**. فقد يحدث أحيانا أن شخصا يريد الدراسة ولكنه لا يعرف ما يريد دراسته. تجري الأمور على خير ما يرام في المزارع التعاونية أو المعمل لوجود خطة. وكذلك تسير الأمور في **التثقيف الذاتي** إذا وجدت خطة –أي إن لم يقفز الشخص من كتاب لآخر- إن لم يقفز من التاريخ إلى الأدب ومن الأدب إلى الفيزياء. فلا خير في دراسة كهذه. فهناك من يريد تعلم ما يخص الحزب، بينما يريد آخر أن يتعلم عن المزارع التعاونية وثالث عن التكنولوجيا ورابع عن تربية الأطفال الخ. وهناك من يريدون أن يكملوا دراسة السنوات السبع بينما يريد غيرهم نيل التعليم الثانوي أو تعاليم المدارس التكنيكية.

4-لا يكفي أن يقرر الانسان ما يريد أن يتعلمه بل من الضروري أيضا أن يضع **خطة للدراسة**. وهذا هو أصعب الأمور. فالمبتدئ عادة لا يعرف حجم المعرفة التي يريد اكتسابها ولا النظام، أي الترتيب الذي يجب أن يدرس ويقرأ الكتب بموجبه الخ.

ومما يساعده في ذلك قوائم الآداب المفضلة، وكتب التثقيف الذاتي والمناهج والكتب الدراسية. **ولكن من الأفضل أن يتحدث مع اختصاصي في الموضوع قبل كل شيء ويستشيره.** بإمكانه أن يستشير المعلمين أو المكتبات أو المستشارين الذين يستخدمون عادة في المكتبات لغرض مساعدة الناس الذين يدرسون دراسة مستقلة. كذلك يمكنه أن ينال نصحا قيماً من المهندسين الزراعيين أو المهندسين أو الأطباء الخ.

والاستشارات قبل البدء بالدراسة ذات أهمية قصوى وغالبا ما تؤثر تأثيرا حاسما على الدراسة المقبلة.

5-كيف يجب أن يدرس المرء؟

أ-يجب ألا يسرع أو كما اعتاد الناس أن يقولوا يجب أن «يسرع ببطء». فالتسرع في التثقيف الذاتي مضر أبلغ الضرر.

موضوعة لأناس ذوي مستويات تعليمية مختلفة. كذلك يجب ان تكون لديه كتب لأهم فروع المعرفة وكتب عن التثقيف الذاتي تعليمات عن الدراسة المستقلة في هذا الموضوع أو ذاك. إن هذه الكتب والعوامل المساعدة تجعل الدراسة المستقلة مثمرة.

- **ارشادات عامة لمن يريد أن يدرس دراسة عام**

-قواعد عامة:

1-كيما يكون التثقيف الذاتي ناجحا، من الضروري تطوير عدد من العادات: القراءة الصامتة، عدم القراءة ببطء شديد، معرفة استعمال الكتب والصحف والكتب الدراسية وقوائم المكتبات، كيفية الاقتباس، وكيفية تسجيل الملاحظات. وبعبارة أخرى لكي يدرس المرء بنفسه دراسة جيدة **يجب أن يتمتع بالحد الأدنى من تكتيك التثقيف الذاتي.**

2-الدراسة الناجحة تطلب مراعاة بعض القواعد.

فأفضل وقت للدراسة هو الوقت الذي لا يكون فيه الانسان متعبا، أي حين يكون رأسه كما يقال «طرياً نشطاً». لذلك فإن الوقت المفضل **للدراسة هو الصباح أو بعد أوقات الاستراحة.**

ولكي لا يتعب الشخص بسرعة من الدراسة **يجب أن لا يدرس في غرفة قليلة الاضاءة، نصف معتمة، رطبة، كثيرة الحرارة**. ومن الصعب الدراسة حيث تجري أحاديث كثيرة وحين يقاطع الشخص مرارا عديدة.

وأفضل دراسة ينالها الانسان هي ان تتوفر لديه الكتب والقواميس الضرورية.. الخ.

لذلك فإن من الأفضل أن يدرس المرء في قاعة مطالعة أو في مكتبة.

ومن بين أكثر الناس غباء على الأرض
يكون أقل اظهارا لكفاءته.
وما أن تبلغ اذنيه المرهفتين
كلمة الهية جليلة
إلا ويبدو كعقاب الجو
ويصبح عندها خيرة الناس لا شيء أمامه. (3)

وما يدعوه بوشكين مجازا «بالكلمة الالهية الجليلة» هو الميل والرغبة في الواقع.

ان المزاج الروحي الذي يسبغه بوشكين على الشاعر يصح كثيرا على كل رجال يظهر اهتماما حيا عميقا وثابتا في موضوع معين. خذوا مثلا طبيبا يحب مهنته حبا مرتبكا. فان روحه خارج مهنته غالبا ما تكون «غارقة في سبات عميق» -انه فاتر عديم الاهتمام بكل ما يحدث حواليه. ولكنه ما ان يتحدث امرؤ في موضوع اختصاصه إلا «ويبدو كعقاب الجو». لو راقبتم الناس عن كثب لوجدتم ان اغلبهم يهتمون بشيء ما اهتماما خاصا. فالبعض منهم يهتم بمواضيع واسعة جدا كإعادة بناء المجتمع الانساني. بينما يهتم آخرون بمكافحة الحرائق وآخرون بأطفالهم وهكذا دواليك. ويكون هذا الاهتمام عادة نتيجة انطباع عميق جدا وبعيد جدا في الغالب. اني اعرف رجل أطفاء خبير. حين كان في العاشرة من سنه رأى حريقا فأثر فيه تأثيرا هائلا. ورجع إلى بيته متأثرا بالغ التأثر ولم يترك أحدا لم يصف له ذلك الحريق. وقد أدهشه العمل الذي ينجزه رجل الاطفاء فأثير اهتماه من هذه الناحية ورسم عنها صورة زاهية الألوان إلى حد المبالغة. ثم جاءت بعد ذلك حياة طويلة –سنوات الدراسة الثانوية الكئيبة، ثم عمل كموظف بسيط وهوايته المحببة: إذ كان يعمل متطوعا في فرقة اطفاء مدينة صغيرة.

لقد عينت وحددت عمل بوشكين طيلة حياته قصص مربيته الخرافية الشعرية والانطباع العميق الذي تركته هذه القصص عليه.

وكلما بحثنا عن مصدر هوايتنا وميولنا الخاصة نجده في الماضي، والماضي السحيق على الاغلب –في بعض تجاربنا العاطفية أي في بعض التجارب التي تستولي على مجامع قلوبنا.

ان اهتمامنا بموضوع معين هو الذي يركز انتباهنا اليه. فالانتباه يمكن تحفيزه واثارته ويمكن عدم تحفيزه واثارته. والانتباه المحفز المثار لا يكون أبديا بل يجب بعثه واحياؤه مرارا وتكرار. أما الانتباه غير المحفز فلا يتطلب أي مجهود من جانب إرادتنا: أضف إلى ذلك أن يكون أعمق وأشد اكتمالا. فالطالب الذي لا يميل إلى التاريخ يجد صعوبة في تركيز انتباهه الى شروح المعلم. فان افكاره مشبعة بأمور أخرى ولذلك يصبح قليل الانتباه ويجب أن يشحذ اهتمامه مرارا وتكرار وهذا يكلفه مجهودا كبيرا.

اما اذا كان التلميذ ميالا الى درس التاريخ فانه يتتبع مدرسه بكل امعان دون أن يبذل أي مجهود. وكلما طال الوقت الذي يستطيع امرؤ أن يركز على موضوع معين ازدادت فرصته لإتقان ذلك الموضوع. أما الرجل الذي لم يحرز المعرفة الكافية والبطيء في اللحاق بالموضوع فانه لن يستطيع التركيز على ذلك الموضوع لمدة طويلة، ولهذا السبب يضمحل شوقه ويخفت اهتمامه بهذا الموضوع. ان قوة الذكاء تكمن في ان الرجل يفضل دراساته وتناوله الحديث والقديم للموضوع ذاته يعزز انتباهه ويقويه مرار وتكرارا أي «يحفز ويثير» انتباهه.

ان الحقائق والمواضيع التي يركز الشخص فيها اهتمامه تبقى في ذاكرته مدة أطول. فالعلم باستور كان يتذكر جملة من الحقائق والتفاصيل التافهة فيما يتعلق بعلم الاحياء الدنيا، بيد انه لم يتذكر بتاتا انجيلوس الشاعر الذي كان يقرأه يوميا مع زوجته. واليكم ما قاله العالم النفساني الشهير وليم جيمس عم دور الليل والشوق:

«اغلب الناس يتمتعون بذاكرة قوية تجاه الحقائق المرتبطة بتتبعاتهم. فرياضي الجامعة الذي يبدو بليدا أمام الكتب سيدهشك بمعرفته عن «مقاييس» رجال الرياضة في شتى مجالاتها وسيكون قاموسا حيا متحركا للإحصاءات الرياضية. وسبب ذلك ذلك يرجع إلى انه يستعيد ويجعل منه سلسلة متدرجة. انها لا تشكل بالنسبة اليه أرقاما غريبة متباعدة احداها عن الاخرى بل نظاما منسقا مفهوما –ولذلك فإنها ترسخ في

أن يلجأ إلى بعض الكتب المتوفرة بهذا الصدد. والناس الذين يدخلون الدورات مرتاحون من هذه الناحية. انه كما يقول فلاحونا «يعيشون بعقول الآخرين». فخططهم موضوعة من قبل المدرسين. وهذا في البداية أبسط طبعا وأفضل بعض الشيء بالنسبة لشخص غير مجرب: فليس ثمة خطر من أن يضل الطريق. ولكنه لو ترك وحده لوضع الخطط وتخصيص الواجبات فسيجد نفسه آخر الأمر في وضع أفضل من وضع الطالب الذي يدخل الدورات لأنه سيتعلم كيف يضع الخطط التي تلائمه شخصيا وتتناسب مع معرفته.

و-والآن فلنمعن النظر قليلا في المسألة التالية: في أي الحالتين **يقتصد الشخص المزيد من وقته وطاقته** حين يدرس دراسة فردية أو في الحلقات؟ ان ذلك يعتمد على شكل تنظيم الدراسات في الحلقة. فلو درس أعضاء الحلقة دراسة واعية، ولو حضروا الاجتماعات بصورة منتظمة ولو انجزوا الالتزامات التي أخذوها على عاتقهم، ولو كان بالإضافة إلى ذلك على رأس الحلقة محاضر خبير، فحينئذ يقتصد الشخص المزيد من وقته وطاقته في الدراسة فيها. فالعمل الجماعي يمكن أن يوفر الوقت. لذلك كان من الضروري إدخال توزيع العمل وتقسيم الواجبات تقسيما معقولا، كل حسب طاقته. كما أن تبادل الآراء يساعد الناس على فهم الاشياء فهما واضحا. زد على ذلك أن المناقشة تثير الاهتمام وتخلق الأفكار. وثمة شيء آخر أيضا. فالعمل الجماعي يستهوي الناس ويدفعهم على المواظبة في الدراسة. إن الدراسة في الحلقات، لكل الأسباب الآنفة، ثمينة، شريطة التمسك بالشروط الآنفة طبعا. إما إذا تأخر أعضاء الحلقة في الحضور أو لم يحضروا الاجتماعات وإذا لم يدرسوا في البيت واعتبروا النقشات في الحلقة كافية، أي إذا لم يقوموا بأي عمل جدي مستقل فمن الأفضل أن ينسحبوا من هذه الحلقة ويدرسوا على انفراد.

وسواء درس الشخص في حلقة أو درس مستقلا، عليه أن يحصل على كافة الكتب الضرورية إن هو أراد أن يقتصد وقته وطاقته وأن يسير في الطريق القويم. فيجب أن يتوفر لدى الشخص قاموس سياسي شعبي، وانسيكلوبيديا شعبية، ودليل لأهم الكتب التي يجب أن يقرأها مع ملاحظات وتعليمات حول ما يجب أن يعرفه الشخص من المعلومات الأولية كي يستطيع قراءتها... الخ. انه لا يمكن أن يستغني كذلك عن وجود مجموعة من خطط الدراسة تتضمن سلسلة من الخطط في شتى فروع المعرفة،

ه-**على المرء أن يتعلم العمل وفق خطة موضوعة مقدما**. فالرجل غير المجرب يحاول عادة أن يفعل عدة أشياء في وقت واحد: فيأخذ كتابا، ثم يتركه ليتناول الآخر، وينتقل من موضوع إلى آخر دون أن يتقن أيا من هذه المواضيع. هذا الأسلوب ليس مثمرا ولا اقتصاديا. فعلى المرء أن لا يقفز من موضوع لآخر، بل عليه أن يضع لنفسه هدفا معينا –ويجب أن لا يكون هذا الموضوع بعيد المنال أو واسعا بل ملموسا ومحدودا. ولنفرض مثلا أن الشخص يريد دراسة الرأسمالية. إنه موضوع واسع للغاية. وكيما يستطيع المرء اتقانه يجب أن يقسمه إلى سلسة من المواضيع المحدودة ثم نختار واحدا من هذه المواضيع –وليكن مثلا الرأسمالية الحديثة. ثم ان على المرء أن يقسم هذا الموضوع أيضا: فيبدأ مثلا السير في هذا الطريق فيختار مثلا وضع الطبقة العاملة البريطانية في المرحلة الحالية من مراحل الرأسمالية. ويجب أن لا ينتقل إلى الموضوع الملموس التالي إلا بعد أن يتقن هذا الواجب المحدد وهكذا دواليك. هذه خير طريقة لإتقان الموضوع من وجهة نظر اقتصاد الوقت والطاقة. ولكي يضع المرء مثل هذه الخطة يجب أن تكون لديه فكرة عن الموضوع ككل ولو كانت فكرة عامة.

لقد قال المهندس الأمريكي الشهير فردريك تايلر في مضمار حديثه عن تنظيم العمل أن كل مستخدم وكل عامل يجب أن توكل اليه مهمة معينة. ثم يقول «وكلما انخفض مستوى عقل الفرد وشخصيته ازدادت الضرورة إلى أن يستغرق كل واجب فترة زمنية قصيرة فقط. فليس بين المعلمين من يفكر بالطلب إلى الأطفال أن يدرسوا كتابا معينا أو موضوعا معينا دراسة عامة. فمن المألوف في كل مكان عمليا تخصيص درس معين لكل يوم يبدأ بسطر معين من الصفحة وينتهي بسطر معين آخر. وخير تقدم يمكن احرازه هو أن تتطور الظروف بحيث يمكن تخصيص ساعة دراسية معينة يجب أن نعلم الدرس خلالها».

ان تايلر محق تماما. فعند الدارسة لأول مرة يجب أن يخصص المرء لنفسه واجبات بسيطة سهلة. إذ لا يمكن انجاز الواجبات إلا إذا كانت كذلك.

ووضع الخطط صعب جد بالنسبة للمبتدئ لأنه عادة لا تكون لديه فكرة واضحة عن مقدار ما يجب أن يتعلمه وعن كيفية تقسيم الموضوع إلى مواضيع منفصلة. فبإمكانه أن يسأل لهذا الغرض رفاقه الذين سبقوه في معرفة المضوع العام لمساعدته، أو يمكنه

ذهنه. وكذلك يتذكر التاجر الأسعار ويتذكر السياسي خطب السياسيين الآخرين وأصواتهم بغزارة تدهش الرجال الذين لا دخل لهم في الموضوع ولكن مقدار الوقت الذي يصرفونه في التفكير بهذه القضايا يفسر ذلك بكل بساطة.

«ان الحقائق التي تحتويها ذاكرة العظماء من أمثال داروين وسبنسر والتي تبدو في كتابتهم لا تنسجم مع امتلاكهم دماغا ذا درجة متوسطة من القدرة الفسيولوجية على الحفظ. فليصمم رجل في مقتبل عمره على البرهنة على نظرية التطور وسرعان ما تتجمع الحقائق لديه وتلصق به التصاق حبات العنب في العنقود. »

«ان علاقتنا بالنظرية ستمسكها بشدة: وكلما ازداد ما يستطيع الذهن ادراكه وتميزه منها ازدادت براعته.

وفي هذه الحالة قد لا تكون لدى النظري ذكريات مفككة مبعثرة أو قد تكون هذه قليلة جدا ان وجدت. وقد تمر الحقائق التي لا يمكن الاستفادة منها بذاكرته غير ملحوظة فتدخل من أذن لتخرج من الأذن الثانية. وقد يتعايش في هذا الرجل جهل لا يقل عن عبقريته الانسكلوبيدية ويختفي في طيات شبكتها». (مبادئ علم النفس بقلم وليم جيمس).

ان الميل يثير الانتباه شرط أولي للتذكر. فكل ذلك انعكاس للدور العظيم الذي يلعبه الميل والاهتمام ولذلك وجب على المرء عند اختياره مواد الدراسة ان يتناول أشوق المواضيع التي تهمه واقربها إلى قلبه. وقد تكون هذه المواضيع بالنسبة للبعض النشاط الاجتماعي وبالنسبة للآخر ين التكنلوجيا والآخرين الفنون... الخ.

ان اختيار هذا الميدان أو ذاك من ميادين المعرفة كأساس للدراسة لا يعني ان الرجل يجب أن لا يعير اهتماما للميادين الأخرى، بل بالعكس. فالمسألة الوحيدة هي كيف يجب أن يتناول الميادين الأخرى.

خذوا مثلا تلميذين: أولهما يميل إلى التكنلوجيا والآخر إلى العلوم الاجتماعية. فكلاهما يجب أن يدرسا الكهربة مثلا. ولكن كل منهما يتناول الموضوع بطريقته الخاصة.

فالتكتنيكي سيدرس المسألة من وجهة نظر التسهيلات التكنيكية اللازمة لكهربة جمهورية روسيا السوفياتية الاشتراكية الاتحادية. وستكون هذه النقطة بؤرة تتجمع فيها كل دراساته. بيد انه عند وضع المشاريع لشبكة التسهيلات الضرورية سيدخل في حساباته ايضا الظروف الاجتماعية التي تقدم خير المساعدة لبناء هذه الشبكة. وهنا ستؤدي به ميوله الخاصة الى دراسة الظروف الاجتماعية.

أما الطالب الذي يميل الى دراسة العلوم الاجتماعية فسيتناول القضية من زاويته الاجتماعية: فالكهربة لا غنى عنها باعتبارها أساسا ماديا للنظام السوفياتي. ولكنه كيما يقرر ما اذا كان من الممكن كهربة روسيا الاتحادية أم لا، عليه أن يتعرف على الكهربائية والأجهزة الكهربائية الخ.

فليس من العبث ان تكون الكتب الشعبية في بلادنا موضوع الكهربة، والذي يصلح لأن يكون كتابا دراسيا ممتازا يكون قد كتبه عامل اجتماعي عادي (ي.ستيبانوف) لا مهندس كهربائي. يرينا هذا المثل أن الميول لا تعين محتوى المعرفة المكتسبة بقدر ما تعين كيفية تناول تلك المعرفة، اي النواة التي تدور حولها شتى أنواع المعرفة الأخرى.

«كل فكرة جديدة وكل شعاع من أشعة المعرفة يجب أن يرتبط بالمعرفة والأفكار التي بحوزة الطالب أو «يهضم ويمثل»، كما يقول العلماء النفسانيون. فالجديد يجب أن يتعلق بالقديم، ان جاز لنا ان نستعمل هذا التعبير».

ويقول وليم جيمس مؤكدا «... ليس أسر وأبهج من هضم الجديد وتمثله من قبل القديم ومجابهة أي غاز يهدد أو يخترق سلسلة افكارنا المعروفة عند هجومه، والنظر في غرابته ثم وسمه بسمة صديق قديم متنكر بزي جديد. ان هذا التمثل للجديد من قبل القديم في الواقع طابع كل بهجة ثقافية. ان شهوة ذلك هي الفضول بعينه. ان علاقة الجديد بالقديم قبل انجاز هضمه وتمثله هو العجب والدهشة. فلسنا نشعر بالعجب أو الفضول بخصوص الاشياء البعيدة عن ذهننا بحيث لا يوجد بين افكارنا ما يمت اليها بصلة ولا بين مقاييسنا ما نستطيع ان نقيسها به».

لذلك منهكا نتيجة مجهودات... فبينما تنجز الأفعال التلقائية الثانوية بقليل من التعب نسبيا –وهي في هذا المضمار تقرب من الحركات العضوية أو الأفعال الانعكاسية الأصلية –فإن المجهود الواعي للإرادة سرعان ما يؤدي إلى الانهاك». **(مبادئ علم النفس بقلم وليم جيمس)**.

نعلم كم تصعب تهجئة الكلمات على الرجل الأمي، وكم يصعب التوقيع أحيانا على الشخص نصف الأمي وكم يبذل من الوقت والجهود ليكتب اسمه. من الواضح أن هذه العمليات كلها تستوعب كل انتباهه وانه لا يستطيع التركيز على ما يقرأ. فكل جهوده تبذل على ضبط والتكنيك. لذلك يجب على المرء أن يطور العادات ويجعلها تلقائية. وبدون ذلك تصبح الدراسة مستحيلة.

د-سبق لنا أن تحدثنا عن **اختيار المواد** من وجهة نظر اقتصاد الوقت أو الطاقة. ولا نحتاج هنا إلا أن نكرر ما قلناه سابقا بكلمات موجزة.

علينا أن نتناول الموضع الذي نستطيع استيعابه: الكتب المكتوبة بلغة شعبية وليس كتب الاختصاص التي تتطلب تدريبا خاصا. وإذا كان يجب قراءة الكتب الأخيرة فعلينا أن نكتسب بعض المعرفة الضرورية قبل ذلك. فتناول موضوع لا نستطيع إدراكه تبذير واضح للوقت والطاقة.

ويجب أن نختار من المعرفة البشرية كلها المواضيع ذات الأهمية الخاصة، أي المواضيع الجوهرية التي يتطلبها فهم بيئتنا وتعلم تحويل هذه البيئة. فليس لدى العامل والفلاح من الوقت والطاقة ما يثيره على المواضيع التافهة.

وعند دراسة المرء موضوعا يجب أن يختار طبعا خير ما يتوفر من الكتب في ذلك الموضوع، الكتب التي تشرح هذا الموضوع شرحا وافيا عميقا وصحيحا. وعلى المرء أخيرا أن يبدأ بموضوع يكون أقرب المواضيع إلى قلبه وان يوسع أفق معرفته تدريجيا وان يتقن أهم فروعها وبذلك يشيد النواة الأولية لمعرفته.

ولو أن عينيه كانتا تقرآن
فان أفكاره كانت بعيدة جدا...

ولذلك فان من الأفضل الدراسة في الصباح إذ أن انطباعات اليوم السابق تزول وتختفي ولم توجد بعد انطباعات جديدة تقطع على المرء سلامه واطمئنانه. وإذا افتقر المرء إلى السلام ولم ير في نفسه الرغبة إلى الدراسة، فمن الضروري رفع معنويته وتحسين مزاجه: اقطع الغرفة ذهابا وإيابا، أو اصفر أغنية تحبها، أي انعش نفسك، أو اقرأ صفحة أو صفحتين لأحد كتابك المفضلين أو افعل شيئا آخر من هذا القبيل.

ج-إذا أراد الشخص أن يكون ناجحا في عمله فعليه أن **يكتسب العادات** الضرورية لدراسة الكتب.

ومن هذه العادات معرفة القراءة والكتابة والحساب وفهم الخرائط الخ. فعلى المرء أن يتعلم القراءة الصامتة الكثيرة والسريعة، وأخذ الملاحظات الدقيقة الموجزة وتناول الكتاب لهدف معين. ويطور المرء هذه العادات بغية العمل على أن لا يبذر الوقت والطاقة.

فالعادة تحرر الذهن وتتركه للتفكير والامعان. فأكثر الافعال لدى الحيوانات تلقائية. والانسان يولد ولديه ميل إلى أن يفعل اكثر مما تهيئه مراكزه العصبية للعمل مقدما. وعدد الأفعال التلقائية عند البالغين من الكثرة بحيث ان أغلبها يجب أن يكون ثمرة دراسة مريرة. ولو لم تكتمل هذه الأفعال بالتمرين أو لم نقتصد العادات مقدارا من الطاقة العصبية والعضلية لكان الانسان في محنة شديدة حقا. يقول هنري موديي وهو على حق: «لو لم يصبح العمل اكثر سهولة بعد تكراره عدة مرات، ولو كان من الضروري بذل التوجيه الواعي الدقيق عند انجازها في كل مرة فمن الواضح أن نشاط الحياة برمته كان سيقتصر على عملية أو عمليتين ولما أمكن احراز التقدم نتيجة التطور. ولا نشغل المرء طيلة يومه في لبس وخلع ملابسه: ولشغل قوام جسمه وشكل وقفته كل انتباهه وطاقته، ولكان غسل يديه أو تزرير أحد أزراره عملا شاقا في كل مرة شأنه في ذلك شأن الطفل عند تجربة هذا العمل لأول مرة. وسيكون إضافة

وقد أورد جيمس على كلامه مثلا مقتبسا من داروين فقال ان الفجيين حين رأوا دارويين تعجبوا من القوارب الصغيرة ولكنهم لم يتعجبوا من السفن الكبيرة.

فليس يثير ظمأ المرء إلى زيادة المعرفة سوى الموضوع الذي يعرف عنه قليلا. يواصل جيمس فيقول «ان المثل العظيم الشائع في علم التربية هو ان نربط كل شعاع جديد من أشعة المعرفة بفضول موجود من قبل، أي تمثل مادته بطريقة ما من قبل المعرفة المتوفرة من قبل. ومن هنا تنشأ فائدة مقارنة كل ما هو بعيد غريب بشيء قريب مألوف، وبتوضيح المجهول بأمثلة من الأشياء المعروفة وبربط تعليم التلاميذ بخبرهم الشخصية.

«فلو أراد المعلم أن يشرح ويوضح لتلاميذه بعد الشمس عن الأرض، عليه أن يسأل: «اذا أراد أحدهم أن يطلق عليكم مدفعه من الشمس ، فماذا تفعلون؟ وسيكون الجواب: نتنحى عن الطريق، وعلى المعلم أن يجيب الاجابة لذلك، بإمكانكم ان تهبوا بهدوء إلى فراشكم وتناموا ملء جفونكم، ثم تستيقظوا ثانية ثم تنظرون حتى يوم تعميدكم بل بإمكانكم ان تتعلموا مهنة وان تكبروا حتى تبلغوا عمري –وحينئذ فقط ستقترب قذيفة المدفع لحينئذ بإمكانكم ان تقفزوا جانبا لتتجنبوها! أترون؟ إلى هذا الحد تبعد الشمس عن الأرض!»، (مبادئ علم النفس بقلم وليم جيمس).

ربط المعرفة المكتسبة حديثا مع المعرفة المتوفرة سابقا، والاعتماد على ذلك –تلك هي القاعدة التي يجب أن يسير الشخص على ضوئها في اختيار المادة الضرورية للدراسة. فليست المسألة الموضوعة البحث هي الخلط بين مختلف العلوم ولا أن يصبح المرء انسكلوبيديا متنقلة، بل المسألة هس أن يعمل الانسان على اكمال المعرفة لديه وربط المعرفة المكتسبة حديثات بالمعرفة المتوفرة من قبل. ولذا فالمسألة هي أخذ الميل كأساس، ثم تعزيز هذا الميل بصورة مستمرة.

وليس المهم أن تتوفر لدى الانسان المعرفة وحسب، بل المهم ايضا أن تنسق هذه المعرفة تنسيقا صحيحا.

وكلمة «التثقيف» في هذه الحالة تعني نسج نسيج كامل من الافكار الجديدة حول نواة الافكار التي يحملها الانسان، على أن تكون هذه الافكار الجديدة، وثيقة الصلة بالنواة.

فمن الواضح جدا أن الفلاح والعامل يرتشفان المعرفة، كل بطريقته الخاصة لأن تجاربهما في الحياة وافقهما في المعرفة مختلفان متباينان.

وغالبا ما تنسى هذه النقطة عند وضع مناهج شتى الدورات ومدارس البالغين، فلا تؤخذ في الحسبان عادة مستويات الطلاب المتباينة. وليست المسألة هنا مقدار المعرفة بل نظام وشكل تقديم هذه المعرفة.

ان الكتاب هو الأداة الأساسية في اتقان أي موضوع. ان يلعب دورا استثنائيا في الحياة المعاصرة وفي الثقافة المعاصرة. «فالثقافة البشرية وراثية، وتمثل تراكم الخبر والمعرفة والاختراعات. ولو لم تكن كذلك، ولو كان على كل جيل أن يبدأ من خدش الحجر لما تقدم الانسان أبعد من حالته البدائية. والخبرة والمعرفة تنتقلان من جيل إلى جيل بواسطة الكتب. فالكتاب بالذات هو الذي يبلور رأسمال المعرفة الذي ينتقل من جيل لآخر والذ يفنيه كل جيل والذي تزداد سرعة نموه باطراد وهذا مما يعجل بتقدم الانسانية (أ.أ.بوكردفسكي. المكتبات وعملها).

لذلك من الضروري جدا أن نتعلم كيف نستعمل الكتب وأن نربي لدينا عادة القراءة كثيرا وسريعا. من الضروري أن نتعلم القراءة بصورة اوتوماتيكية اطلاقا دون أن تحيد افكارنا عن القراءة.

بيد ان هذا لا يكفي. بل يجب ان يفهم القارئ ما يقرأ. وهذا أصعب كثيرا، لأنه يتطلب بعض الموهبة ويتطلب أفقا أوسع واحتياطا كبيرا من الكلمات والأفكار.

وكلما نضج الانسان بسرعة كان أسرع في فهم ما يقرأ، بيد أن على المرء أن يعرف كيف يفرق بين ما يفهمه وما لم يفهمه، وكيف يحلل الأجزاء الغامضة مما قرأ، والطريقة المثلى هي اعادة قراءة الموضوع والتعمق في الكلمات والافكار والتعابير غير المفهومة، ومن أجل ذلك يجب أن يرجع الانسان إلى القواميس السياسية

يعمل الانسان العادي أفضل من أي وقت آخر. فان كان الشخص مجبرا على العمل من الصباح الباكر فسيجد صعوبة طبعا في توفير بعض الوقت للدراسة صباحا أما إذا بدأ عمل الشخص اليومي في العاشرة أو الحادية عشرة صباحا فان ساعات الصباح يجب الاستفادة منها. بيد أن السهر الطويل غالبا ما يخرب كل شيء وهذا ما يجب تصحيحه. فالدراسة المسائية أكثر ازعاجا. إذ أن الأشخاص يضطر إلى شرب الشاي وتدخين السكاير والمناقشة رغبة منه في دفع النعاس عن عينيه –والنتيجة هي الانهيار السريع وتدهور الكفاءة على العمل.

والشرط الثاني هو الهواء النقي. فالعقل لا يعمل عملا نشيطا طيبا إلا إذا كان القلب نشيطا وهذا يتطلب الهواء النقي. ويجب أن لا يكون جو الغرفة حارا جدا أو وخما. وقبل البدء بالعمل يجب فتح النوافذ وتهوية الغرفة. فالغرفة المملوءة بدخان السكاير والبخار تجعل العمل شاقا للغاية.

والشرط المناسب الآخر هو عدم وجود أي شيء يجلب انتباه الشخص أثناء العمل. فليس بإمكانك أن تدرس في الضوضاء، وحين يتحدث الناس أو حين يقاطعك الناس باستمرار بقضايا تافهة، من الضروري أن نتعلم احترام سلم الناس واطمئنانهم فلا نضج ونصفر ونتحادث عندما يدرس الآخرون. كذلك أن يتعلم المرء كيف يدرس في مكتبة أو في ناد. وليس في المكتبة ما يصرف ذهن الشخص. اضف إلى ذلك تتوفر في المكاتب الكتب الجامعة والمصادر والكتب والأطالس والكتب الدراسية وكل ما يحتاجه الشخص لمساعدته على الدراسة الجدية.

صحيح أن بين الناس من يستطيع الدراسة حتى في أكثر المحلات صخبا وضجيجا ولكنهم لا يستطيعون ذلك إلا حين يكونون منهمكين بحيث لا يعيرون اهتماما لكل ما يجري حواليهم. يقال عن أرخيميدس الهندسي الإغريقي كان منغمرا في مخططاته إلى درجة أنه حين هجم على بيته أحد جنود الأعداء لم يقل له شيئا سوى: «لا تمس دوائري». ولكن ليس بمقدور كل شخص أن ينغمر في دراسته لدرجة لا يرى معها كل ما يجري حوله ولذلك كان من الافضل أن لا يزعجه أحد. ولكي يكون الطالب ناجحا يجب أن لا يدع الافكار الأخرى تقاطعه بين حين وآخر وإلا لكان شأنه شأن يفجيني اونيجين الذي كتب عنه بوشكين:

المتعبد: فهو يجب أن يجتمع بالناس ويرى كيف يعيشون فقد تولستوي وقتا لهذا أيضا وإلى القراءة الخ.

لقد وصف هذا الجانب من حياة تولستوي وصفا جيدا في كتاب سرجييتكو **كيف يعيش ليو تولستوي وكيف يعمل.**

وقد اتبع نفس هذا النظام إميل زولا أيضا، وهو الذي كتب عددا عظيما من القصص يصف فيها مختلف طبقات المجتمع الرأسمالي. فقد تعود زولا أن يستيقظ في الساعة السادسة صباحا وكان تولستوي يكتب كل صباح ويصرف بعض الوقت في دراسة الطبقات الاجتماعية التي كان يكتب عنها.

وخذوا قصص حياة الموسيقيين العظماء، ولتكن حياة بتهوفن مثلا وستجدون كم من الوقت كان يصرف في العزف على البيانو وكيف نظم وقته تنظيما دقيقا.

والعلماء الطبيعيون والأطباء أكثر من السابقين دقة في تنظيم أوقاتهم وهم الذين يعملون بالمجهر والمختبرات يجرون البحوث التشريحية. ومن المفيد أن يقرأ الانسان مثلا عن حياة أديسون أو باستور أو غيرهم من العلماء.

وقد اتبع الجراح الشهير كوخو جدولا معينا يوما بعد يوم حتى بعد شيخوخته: فكان يذهب إلى الفراش في ساعة معينة ويلعب التنس لتمرين بدنه على العمليات الخ.

وثمة آلاف من الأمثلة المتشابهة. وعلى من أراد النجاح أن ينظم وقته بكل عناية وأن يقتصد فيه أيما اقتصاد.

ب-ومن متطلبات العمل السلس أيضا دون تبذير الوقت والطاقة خلق أفضل وضع ممكن للعمل.

وأهم شيء هو أن يكون المرء نشيطا مستعدا للعمل. فالرجل المتعب المنهك يعمل ببطء ويعمل عملا رديئا. وأنسب ساعات العمل بالطبع هي ساعات الصباح ففي الصباح

والانسكلوبيديات والكتب الدراسية والكتب الشعبية المعلقة بالموضوع الخ. واذا ما صعبت معاني الكلمات فمن المفضل كتابة واستذكار العبارة التي ورجت فيها تلك الكلمة بأكملها والتفكير في عدد من العبارات المشابهة التي تدخل فيها تلك الكلمة. وباختصار على المرء أن يقلد الاطفال في هذا. اتذكر اني كنت أراقب فتاة في السادسة من عمرها، كانت قد سمعت لأول مرة في حياتها بالكلمة «وقتيا». لقد كررتها في النصف الساعة التالية أكثر من عشر مرات وبعبارات مختلفة. وقد فعلت ذلك دون وعي منها بالطبع. فعلى الشاب أو الراشد أن يتبع نفس الأسلوب ليتعلم كيف يستخدم الكلمات التي لم يكن يعرفها بصورة أوتوماتيكية عندما تقتضي الحاجة استعمالها. والشيء الرئيسي هو أن يضبط معنها الصحيح ومفهومها الدقيق وان يحذر من استخدامها بصورة مخطوءة.

ان هذا التنقيب عن معنى التعابير والكلمات غير المعروفة، يحرف بطبيعة الحال ذهن القارئ عن فكرة الكتاب الرئيسية، ولتجنب ذلك على المرء أن يسعى الى اتقان اللغة الأدبية بأسرع ما يمكن وأن يتعلم استخدامها بصورة أوتوماتيكية.

ومما لا غنى عنه أيضا فهم القارئ للموضوع الذي قرأه وهنا يجب اتباع نظام معين.

أولا، عندما ينهي شخص قراءة كتاب (وفي البداية من المفضل أن يفعل القارئ هذا بعد قراءة كل فصل من فصول الكتاب) يجب أن يحلل مقاصد الكاتب، أي فكرته الرئيسية والحجج التي يدلي بها في تأييد فكرته هذه. فمن المهم جدا أن يتصور القارئ بوضوح سير أفكار الكاتب. فالفهم الصحيح هو الخطوة الأولى لتتبع الكتاب تتبعا واعيا.

وقد يحدثأ يصعب على القارئ ادراك ما يريد الكاتب ان يقول فيضطر الى قراءة الكتاب من جديد مثنى أو ثلاث أحيانا. عند محاولة المرء تحليل ما قرأه يجب الا يحاول تذكر كل الأمور التفصيلية التافهة أو كل كلمة. فان الضرر من هذا أكثر من فائدته. بل ن ما يجب أن يحاوله المرء هو ان يمسك بالنقاط الجوهرية، اي النقاط الرئيسية، ويفحص النقاط التي تسندها. وقد يورد الكاتب احيانا بعض الوقائع التي توضح آراءه أو قد يدلي بحجج تؤيد هذه الآراء. وأفضل شيء بعد القراءة هو ان يضع القارء مخططا مكتوبا لما قرأه. بيد أن هذا كله يتطلب تدريبا طويلا.

ثم ان على القارئ أن يهضم محتويات الكتاب. وان أوضحت الفكرة الرئيسية بالوقائع، فيجب أن يرى المرء أولا ما اذا كامن عرض هذه الوقائع عرضا صحيحا، وثانيا ما اذا كانت هذه الوقائع نموذجية بدرجة كافية. وعلى المرء ان يحاول في وقائع مشابهة أو وقائع معاكسة لها تماما، وحين يدلي الكاتب ببعض الحجج لتأييد فكرته، فعلى القارئ أن يحاول وضع حجة أخرى وان يقارن بين الحجتين ويقرر أيهما أوضح وادق. وعلى المرء كذلك ان يبحث عن طريقة اخرى لتناول المسألة. وبعد ان يكون القارئ قد فعل كل ذلك يجب أن يقرر ما اذا كان متفقا مع الكاتب أم لا، وفي أي النقاط يتفق معه أو يخالفه.

عند قراءة كتاب ما على المرء أن يسجل ما يريده ويجب أن يتذكر التواريخ والأسماء والأرقام. وقد يكون من المفيد في الغالب تخطيط جدول على أساس هذه الأرقام كيما تتكون لدى المرء صورة أوضح عما قرأ. وكذلك من الضروري أن يسجل القارئ كل الأفكار والتعابير التي يحبها. بيد أن على المرء أن يتجنب الاقتباسات الطويلة التي لا يقل فهمها عن فهم الكتاب صعوبة. يجب أن لا يسجل المرء إلا ما هو جوهري ويسجلها كآراء وفي نفس تسلسل ورودها في الكتاب. ويجب كتابتها كتابة واضحة مفهومة.

أما الدفاتر الضخمة التي يصرف فيها القارئ وقتا طويلا فتكتب فيها مقتسبات طويلة لا يعرف حت صاحب الدفتر أولها من آخرها فعديمة الفائدة تقريبا. ومن الناحية الثانية فإن الدفاتر ذات المقتبسات المسبوكة الموجزة الدقيقة والمفهومة، المقتبسات التي تذكر القارئ حالا بما قرأ وتمكنه من توجيه نفسه بواسطة الأرقام والمواد الاخرى تفيد فائدة جمة. فهكذا يجب أن يتعلم القارئ الاقتباس من الكتب. وعلى المرء أن يتدرب على ذلك دون أن يفرط بوقته، فيبدأ في مقالات صغيرة وينمي في نفسه تدريجيا عادة عمل هذه الأشياء بطريقة تقتصد الوقت أيما اقتصاد.

وفي حالات معينة يكون من المفيد طبعا اقتباس قطع مطولة، فان كان الكتاب شيقا وهاما بشكل خاص على المرء أن لا يبخل بالوقت اللازم لتسجيل مقتبسات مطولة وفي

ه-توزيع عملنا توزيعا مناسبا.

و-ابتكار أشكال من العمل الجماعي لغرض اقتصاد الوقت والطاقة.

ز-أن تكون تحت تصرفنا العوامل المساعدة والتعليمات الضرورية.

أ-والآن فلنبدأ بتنظيم الوقت.

واضح أننا لو اردنا أن نصرف وقتنا بشكل مثير علينا أن نعرف كيف ننظمه تنظيما صحيحا. فكيف نصرف وقتنا عادة؟

اننا لا نعمل ساعات منظمة إلا في المعامل أو الدوائر. أما باقي أوقاتنا فنصرفها كيفما اتفق: نتجاذب الأحاديث مع الأصدقاء ونستلقي في الفراش ونقرأ قصصا سخيفة الخ. ثم ندرك في المساء كم بذرنا من الوقت فنمسك كتابا مفيدا –ولكنك حينذاك- تجد نفسك منهكا. ولكي تبقى مستيقظا تدخن سيجارة بعد أخرى وتترك كتابك جانبا وتتكلم أو تناقش مع أحد الأصدقاء حتى الفجر تقريبا. وفي الصباح تستيقظ خاملا منهكا.

إن الأجانب يعرفون قيمة الوقت. فالعلماء والكتاب والاساتذة ينامون مبكرين ويستيقظون مبكرين ويعملون حين يشعرون بالنشاط ولا يزورون أصدقائهم إلا نادرا وينظمون أوقاتهم بدقة. فهم يعينون ساعة منظمة للنهوض من النوم والعمل والغذاء والراحة.

من الشيق جدا أن نرى كيف نظم مشاهير العلماء والكتاب أوقاتهم.

ولنأخذ تولستوي مثلا. لقد كتب قصصا صغيرة وكبيرة –وهي أشياء تعتمد كليا على مزاج الفرد. ومع ذلك فقد كان وقته منظما أدق تنظيم. فقد كان يعمل الكثير كل صباح، ويكتب شيئا ويعيد كتابته من جديد مرارا وتكرارا. والكاتب لا يمكن أن يعيش كالناسك

وأجدادنا. فكل يوم يجيء لنا بالجديد فيترتب علينا أن نراه ونحكم عليه ونقرر رأينا فيه. ولكي نفعل كل ذلك على الوجه الصحيح يجب أن نعرف الكثير.

وهذا يصح عن الطبقة العاملة عموما وعلى كل عامل خصوصا. فليس لدينا الوقت الكافي للعمل الهوينا، وأكمامنا مرتخية على أيدينا. فعلينا أن ندرس دراسة اقتصادية، أي بأقصى سرعة ممكنة.

لقد حتم التاريخ على روسيا –وهي بلد متأخر نسبيا- أن تكون أول دولة ترفع راية الثورة الاشتراكية وأن تبقيها خفاقة منذ خمسة سنوات (5). فعليها أن تقوي أساسها المادي إن هي أرادت أن تواصل السير في طريقها باعتبارها معقل الثورة العالمية. ولكي تحقق ذلك عليها أن تدرس بحماس ودون توقف، مقتصدة من الوقت والطاقة أقصى ما يمكن اقتصاده.

فالحياة ذاتها تدل الشاب العامل أو الفلاح على هذا الاقتصاد. فالعامل أو الفلاح يقضي طيلة وقته كادحا. وليس له من الوقت ما يكرسه للتثقيف الذاتي إلا القليل.

وهكذا فإن الساعة التاريخية التي تعيشها ووضع روسيا الخاص وظروف حياة الأغلبية الساحقة لطلابنا يتطلب منا الاقتصاد في الوقت والطاقة اقتصادا صارما.

ولكي نحقق ذلك فإن الأمور التالية لا غنى عنها:

أ-تنظيم وقتنا تنظيميا صحيحا.

ب-خلق أنسبي ظروف عمل ممكنة.

ج-اكتساب العادات الضرورية لدراسة الكتب.

د-اختيار المواد المناسبة للدراسة.

اقتباس عبارات بكاملها. ويجب أن يفعل المرء ذلك إن كان في نيته أن يقتبس من الكتاب مقالا أو تقريبا.

كذلك من المفيد كتابة مقتبسات طويلة حين لا يكون المرء قد أتقن فن الكتابة أو الاملاء أو اللغة الأدبية. فالاستنساخ في مثل هذه الحالات مفيد جدا. ومن الأفضل استنساخ ما يلذ القارئ وما يتعلق بما قرأه. وهذا أكثر ثمرة من استنساخ أي شيء آخر.

ولكن من الأفضل عادة كتابة مقتبسات قصيرة ودقيقة ومضبوطة.

وهكذا فان الواجب الاول هو ان يصبح الموضوع الذي قرأه المرء واضحا وأن يتقنه.

والواجب الثاني هو هضم القارئ لما قرأ.

والواجب الثالث هو كتابة المقتبسات الضرورية.

والواجب الأخير هو تقرير ما إذا كان الكاتب قد قدم للقارئ معرفة جديدة. وما إذا كانت هذه المعرفة ضرورية ومفيدة وما إذا كانت قد علمته أساليب جديدة للملاحظة والعمل والدراسة وما اذا حفزت بعض أمزجته ورغباته.

وبذلك نكون قد وضعنا خطة أو مشروعا لدراسة كتاب.

وهذه الخطة يمكن تحويرها طبعا ويمكن صياغة مسائلها بطريقة أخرى. ففي دراسة الرياضيات أو العلوم الطبيعية مثلا يحتمل اننا لا نستعمل سوى جزء من هذه الخطة. والمهم هو أن تكون لنا خطة محددة، فذلك يزيد من ثمرة عملنا، فالنظام يلعب دورا هاما للغاية في أي عمل. فكثيرا ما يتيح للمرء أن يرى ما لا يراه الآخرون. مثلا، نعلم أن نابليون عندما كان يستعرض جيوشه كان يلاحظ أبسط ارتباك في قيافة الجنود، مما يعجز ضباطه عن كشفه مهما بذلوا من محاولات قبل الاستعراض. والجواب على ذلك

بسيط: كان لنابليون نظاما معينا في استعراض جيوشه وهذا يمكنه من ملاحظة كافة النواقص والأخطاء.

ولنر كيف يتناول مختلف الاخصائيين موضوعا معينا فكل منهج له نظامه الخاص في الملاحظة. فالفنان مثلا ينظر الى النبات من وجهة نظر ألوانه وبهائه وانعكاسات أنواره ورشاقته. وحين ينظر الفنان إلى النبات غالبا ما يتجاهل عدد الأسدية في زهرته وكيفية توزيع هذه الأسدية –اذ ان هذا لا يؤلف جزءا من **نظام ملاحظته**. أما عالم النبات فبالعكس من ذلك، ينظر أول ما ينظر الى الأسدية والأوراق الخ. ويتجاهل كل التجاهل انعكاس النور على الأزهار في تلك اللحظة وكيف يبدو في هذا المنظر أو ذلك. والشيء ذاته يحدث في القراءة: إن أهم شيء هو كيفية تناول الموضوع. فقد يلحظ المرء ما يخطئه الآخرون لو تناولوا الكتاب من زاوية أخرى. وان التناول المعين للكتاب يصبح عادة شيئا فشيئا.

ان الكتب تقدم لنا المعرفة وتعرفنا على خبر الآخرين. ولكننا نستطيع اتقان هذه المعرفة اتقانا افضل لو اختبرنا الخاصة. اقرأ: «خلال العاصفة يبدو البحر منظرا خلابا ورائعا». ولكنك لو رأيته بعينك لكان ذلك شيئا يختلف عن القراءة كل الاختلاف. فإننا نقرأ مثلا ان المكائن تقلل من وقت الانتاج ولكن لا يقدر هذه الحقيقة حق قدرها سوى أولئك الذين انتجوا البضائع أول الأمر بأيديهم ثم بالمكائن. كما أن القراءة عن عملية جراحية (في العين أو الأذن) أمر يختلف كل الاختلاف عن إجراء تلك العملية.

لذلك فان الرجل المجرب، الرجل الذي رأى الناس وطقوسهم وعاداتهم غالبا ما يعرف الحياة خيرا من رجل قد يكون أكثر منه موهبة ولكنه أقل منه ملاحظة. وليس من قبيل الصدف ان نتحدث بإجلال عن طبيب «ذي خبرة» أو معلم «ذي خبرة» الخ.

كانت في العصور الوسطى عادة شيقة وملهمة جدا. فلم يكن يسمح للعامل المياوم (4) أن يصبح خلفة بعد أن ينهي دورة التجربة لا بعد أن يقضي مدة معينة في السفر فيزور فيها المدن الأخرى ويعمل لدى شتى الحرفيين ويرى كيف يعيش ويعمل أترابه في المهنة في المحلات الأخرى.

لذلك فمن المهم جدا أن يختبر الرجل الذي يمارس التثقيف الذاتي المعرفة التي اكتسبها من الكتب ويمتحنها وفق ملاحظاته وتجاربه.

ومن الأمور الفعالة في هذا المضمار زيارات المتاحف والمعارض الزراعية والصناعية، والمزارع النموذجية والمعامل. كما اننا يجب أن نستفيد من السفرات استفادة واسعة بيد اننا يجب أن نضمن أن يكون سلوكنا في هذا سلوك رجل الأعمال وأن لا تتحول سفراتنا إلى نزهات. يجب أن نسجل مذكرات عن مشاهدتنا ونضع جداول (إن كنا نعرف ذلك) ونكتب انطباعاتنا. يجب أن نستفيد من كل فرصة للسفر لزيارة أماكن جديدة ورؤية ناس جدد والاطلاع على أسلوب حياتهم وأسلوب عملهم. فحتى الحياة العادية تقدم مواد غنية للملاحظة والدراسة بيد أن على المرء أن يضع الخطة مقدما لما يريد أن يراه ولماذا يريد أن يراه ومن ثم ينفذ هذه الخطة ويستخلص الاستنتاجات الضرورية منها.

ان هذا العمل سيكون اكثر حياة وأغزر ثمرا لو انكبت عليه جماعة كاملة. فان ذلك يتيح للمساهمين به ان يتناقشوا حول ملاحظاتهم وبما ان كلا منهم يتناول الأمور بطريقته، ومن زاوية مختلفة فستكون النتيجة دراسة للمسألة من جميع الوجوه، وأكثر من ذلك ان المجموعة ترى أمورا كثيرة قد يعجز الفرد عن رؤيتها.

-اقتصدوا الوقت والطاقة

ان الأمريكيين ناس عمليين وهو دائما يقولون «الوقت نقود». ولديهم فرع كامل من فروع الأدب – ولسوء الحظ اننا نحن الروسيين لا نعرف عنه الا القليل- يعالج تنظيم الدراسات في المدارس العالية والكليات وينير الدرب امام الشباب الأمريكيين ليريهم كيف يقتصدون الطاقة ويجتازون أقصر الطرق للنجاح. ان الشاب الامريكي يدرس ذلك جيدا وعلينا نحن أيضا أن نتعلمه.

فلسنا في الوقت الحاضر في وضع يسمح لنا بتبذير وقتنا وطاقاتنا. فإننا نعيش على حدود نظامين اجتماعيين: فالنظام الرأسمالي القديم مشرف على الموت والنظام الشيوعي الجديد سائر نحو النمو. وليس باستطاعتنا ان نعيش الآن كما عاش آباؤنا